MENA RESEARCH CENTER

مركز أبحاث ودراسات مينا

دور "الهراطقة" والهزائم في تأسيس حزب العمل الشيوعي في سورية

مركز أبحاث ودراسات مينا

حقوق النشر والطبع ورقياً والكترونياً محفوظة لصالح مركز أبحاث ودراسات مينا

www.mena-studies.org www.mena-monitor.org

شكلت تجربة حزب العمل الشيوعي في سورية (١٩٧٦) واحدة من أهم التجارب اليسارية العربية في العصر الحديث، بحيث يمكن القول معها أن تجربة الحزب أو "الرابطة" كما تعرف في سورية تشكل مرآة؛ يمكن أن نقرأ فيها صعود هذا اليسار وهبوطه خلال القرن الماضي، باعتبار أن تجربة الحزب تشكل واحدة من أهم التجارب على صعيد المواجهة مع الاستبداد من جهة، والإسلام السياسي من جهة ثانية؛ والمؤسسة اليسارية الكلاسيكية التي كانت سائدة ومهيمنة آنذاك من جهة ثالثة، بحيث يمكن اعتبارها انشقاقاً عن المؤسسة الرسمية، واستكمالاً لمسارها العام بنفس الوقت من حيث انتمائها إلى ذات الجذر الفكري المعرفي المؤسس لليسار العربي والعالمي عموماً.

سنحاول في هذه الورقة، قراءة السياق الذي ولد فيه الحزب ومن ثم معرفة العوامل المؤثرة والمكوّنة التي أدت إلى ولادته؛ الذي أرّق السلطة السورية طيلة عقدين من الزمن، دون أن يشكل تهديداً حقيقياً لها بذات الوقت كما سنرى لاحقاً.

وسنحاول أن نفهم لماذا ترسخت تلك التجربة في ذاكرة السوريين ومخيالهم الجمعي؟ رغم محاولات النظام العديدة ويسارات أخرى طمس هذه التجربة والتعتيم عليها! إذ كان اسم "الرابطة" كما يعرف في سورية وأسماء مناضليها الكثر الذين عرفتهم السجون، يتداول همساً كمناشير مهربة، ويحتفى بهم في المجالس الخاصة؛ رغم تبرّؤ الجميع منهم علناً خوفا من مخبري السلطة والعسس الذين يبحثون عن أي "تهمة تعاطف" مع كل من يظهر معارضة للاستبداد، حتى لو كان مجرّد تعاطف إنساني مجرّد من أي بعد سياسي.

من الضروري هنا الإشارة إلى مسألة مهمة، تثير تناقضاً بقدر ما تثير إشكالية ما، ونعني بها أن اسم الرابطة وحضورها ومعرفة الناس بها "أو على الأقل الجمهور المعني بالتغيير والمترقب له وإن لم يكن ناشطاً سياسياً، ومن يجايله أو يخالطه، باعتبار أن عقد التسعينات كان عقد الصمت في سوريا، خاصة بعد أن تمكنت السلطة من اعتقال آخر قيادي حزب العمل الشيوعي في سورية عام ١٩٩٢ ونقصد عبد العزيز الخير، وذلك بعد أن كانت السلطة تمكنت من القضاء كلياً على تنظيم الإخوان وكل المعارضة السورية وبعد أن تمكنت من تحجيم عمليات الطليعة المقاتلة التي عاد وخرج أخر كوادرها من سورية عام ١٩٩٧ وفق تسوية ما لم يفصح عن تفاصيلها بعد".

كانت قائمة رغم أن الرابطة لم تصدر أي كتاب عن تجربتها ولم يقدم أي من المنتسبين لها على كتابة

تجربتهم عنها إلا بعد عقود طويلة من ذلك، خاصة بعد الثورة، فأول كتاب توثيقي للرابطة صدر عام ٢٠٢٠ وهو بعنوان "قصّة حزب العمل الشيوعي السوري (١٩٧٦–١٩٩٢): فصل من تاريخ اليسار في سوريا" للكاتب راتب شعبو، وهو أحد أعضاء الرابطة، وقد سجن على قيودها حوالي ١٦ عاما متصلة، قضى منها ثلاثاً في سجن تدمر الرهيب.

الحال هذا يضعنا بمواجهة سؤال:

كيف تمكنت الرابطة من تحقيق هذا الحضور دون أن يكون هناك ما يوّثق تجربتها ويعلنها للعموم بشكل رسمي؟ قد يجيب بعضهم أن الأمر يعود إلى الإصدارات الحزبية الكثيرة التي كانت تصدرها الرابطة في فورة نشاطها، ومنها "الراية الحمراء" و"الشيوعي" و"البروليتاري" و"النداء الشعبي" التي واظبت على الصدور في فترة تأسيس الحزب وبعدها، ثم لاحقاً منشور "الآن" التي عاود الصدور بعد أن أعلن الحزب عودته للحياة السياسية في عام ٢٠٠٣.

رغم أن هذا الأمر يفسر جزئياً حضور الرابطة، إلا أنه يبدو لنا غير كافي لتفسير قوة حضور الرابطة في الذاكرة الشعبية نوعاً ما، لأن المناشير مهما كانت قوية لا يمكن أن تصل للجميع، خاصة بعد اعتقال كوادر الحزب وتوقف نشاطه بشكل شبه كلي تسعينات القرن الماضي، ما يجعلنا نعيد الأمر إلى عدة أمور، منها أن عناصر الرابطة (وهو ما سنتحدث عنه لاحقاً في مبحث أخر يتحدث عن تأسيس الرابطة ونشاطها) كانوا ينتمون إلى كل القوميات والطوائف والأديان في سورية، بما جعل من الرابطة حاضرة بطريقة أو بأخرى في كافة فئات المجتمع، إضافة إلى أن قوة حضورهم العاصف في ثمانيات القرن الماضي وطبيعة النضال الذي خاضوه والأثمان التي دفعوها إلى جانب تيارات أخرى، شكلت عملياً الرافعة الأساس التي جعلت من حضورهم قائماً في ذاكرة السوريين رغم غيابهم لسنوات طويلة في المعتقلات.

ولكن رغم هذا الحضور الطاغي في الذاكرة السورية، فإن حضورهم السياسي والفعلي سوف يقل شيئاً فشيئاً بعد اعتقال أخر كوادرهم (١٩٩٢) الذي حرم الحزب من وجود قيادة قادرة على التحرك والمناورة إضافة اعتقال القسم الأبرز من أعضاء الحزب وتخفّي من بقي طليقاً أو حالفه الحظ بعدم انكشاف أمره، فتوقف نشاط الحزب بشكل شبه كلي حينها من ١٩٩٢ حتى تاريخ عودته إلى النشاط السياسي عام ٢٠٠٣، وذلك دون أن يستطيع تحقيق أمجاده السابقة، لأن الكثير من الكوادر تخلت عنه، وذهب قسم كبير منهم نحو الليبرالية بعد انهيار الاتحاد السوفياتي.

إضافة إلى أن ثمة أمراً يلعب دوراً بارزاً، وقد يتحمل الحزب نفسه مسؤوليته، وهي تتعلق بتأخر الحزب/ الرابطة في إصدار أي كتاب توثيقي أو على الأقل تعريفي، يعرّف الشعب السوري بتجربة الحزب والأثمان التي دفعت، حيث كان كل ما صدر هو مذكرات سجناء من أعضاء الحزب تعرّض تجارب شخصية أكثر مما تحكي عن تجربة الحزب نفسه ونضاله.

ولكن أيضا ثمة مفارقة أخرى تتعلق بمسألة الحضور والغياب جماهيرياً أو شعبياً، فهذا الحضور في الذاكرة السورية الجمعية (خاصة فترة سبعينات وثمانيات ونسبياً تسعينات القرن الماضي، بما يعني ذلك أيضا الأجيال التي ولدت قبل هذه العقود، مع الانتباه أن حضورهم الرمزي سيكون أقل في ذاكرة الأجيال القادمة، بسبب تأميم القمع وتوّسعه وتمدّده)، يقابله غياب شبه تام عن خريطة اليسار العربي عموماً، فالرابطة بالكاد معروفة خارج سورية، رغم أنها في فكرها ذات طابع أممي، وهذا ربما يعود في جزء منه إلى عدم قدرة الرابطة التي ركزت عملها في الداخل السوري واللبناني والقضية الفلسطينية على أن تتوسع أكثر من ذلك، خاصة مع عمرها القصير، إلا أن السبب الأهم وفق تصورنا يعود إلى خصومة اليسار الرسمي السوري معها، وهي خصومة ومنافسة إيديولوجية على احتكار اليسار وتمثيله داخلياً.

ولما كانت الأحزاب اليسارية الكلاسيكية أقدم عمراً وأكثر رسوخاً في سورية، فإنها كانت مدت قبل زمن طويل جسور تواصلها مع الخارج، محتكرة تمثيل اليسار، ما شكل عائق أمام ليس الرابطة فقط، بل كل التيارات اليسارية التي ولدت من رحم هذا اليسار.

السياق العام الذي ولدت فيه الرابطة

كانت مرحلة نهاية الخمسينات وعقد الستينات من القرن الماضي، مراحل الهزيمة العربية بامتياز، ليس فقط بسبب هزيمة حزيران التي لعبت دورا بارزاً ومؤسساً للكثير من الظواهر والتيارات التي ولدت في تلك الفترة، حيث كانت بمثابة الصدمة التي هزتت الوعي العربي في الصميم، دون أن تكون هي البداية كما يتوهم البعض؛ بل كانت تتويجاً لسلسلة من الهزائم الصغيرة التي بدأت تظهر وتطل برأسها، هزائم تبدأ من تمخض مشروع الدولة الوطنية الديمقراطية التي ولدت بعد رحيل الاستعمار عن وهم، حيث لم تتمكن الطبقة الحاكمة التي كانت تنتمي عمليا لطبقة الأعيان والإقطاع من إيجاد حلول للمسائل الاجتماعية الاقتصادية في أغلب البلدان العربية، الأمر الذي فسح المجال أمام صعود الأحزاب السياسية الراديكالية والانقلابات التي وصلت السلطة بصيغتها القومية العربية مقدمة نفسها قائدة لمشروع التحديث، إلا أنها سرعان ما غرقت في الاستبداد الذي كانت نسخته الناصرية أولى النماذج المحدثة التي جمعت بين مشروعين متناقضين، الاستبداد الداخلي والمشروع القومي العربي الطامح، حيث كان الاستبداد داخلاً يقصي عملياً الحوامل الاجتماعية للثورة العربية، فوصل مرحلة الانهيار التام التي بدأت مع انهيار الوحدة المصرية السورية؛ وتوّجت في هزيمة حزيران التي كانت عملياً المسمار الأخير في نعش التيار القومي العربي الذي كان حاكماً ومهيمناً على المخيال الجمعي العربي في صيغته الناصرية، إضافة إلى إفلاس السياسات "الثورية" التي قدمتها السلطات داخلاً بعد أن صادرت الحرية، وهكذا ضمن هذا السياق بدأ يتشكل مناخ جديد، مناخ ممزوج بالهزيمة من جهة، ويائس من التيارات والأحزاب السياسية القائمة العاجزة عن تحقيق مطالب الجماهير داخلاً وخارجاً، ولكنه بذات الوقت باحث عن إمكانيات الفعل لتجاوز هذه الهزائم مجتمعة، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى ولادة الرابطة في سبعينات القرن الماضي، وذلك بتأثير مباشر من العوامل التالية، التي يمكن اعتبارها الجذور المحفّزة لولادة رابطة العمل الشيوعي في سورية، والتي أصبح اسمها لاحقاً حزب العمل الشيوعي بعد اتخاذ الكوادر المؤسسة قرار التحوّل إلى حزب سياسي.

العوامل التي جعلت الرابطة تتحول إلى حزب سياسي؟

إفلاس التيار القومي الحاكم في سورية داخلاً

بعد حوالي عقد ونيف من استلام حزب البعث للسلطة في سوريا (١٩٦٣)، استنفد الحزب كل الإجراءات الراديكالية "الثوروية" التي قام بها من إصلاح زراعي وتأميم وتنمية، حيث بدأت الآثار الإيجابية للقفزة النوعية التي حدثت اجتماعياً واقتصادياً تتراجع وتستنفد، ما ترك أثره على الكثير من الفئات التي وجدت نفسها مهمشة ومقصية ومبعدة عن العمل، خاصة بعد قيام السلطة بوصول حافظ الأسد بالتصالح مع البرجوازية التقليدية والتحالف معها على حساب الفئات الشعبية، حيث ولدت من رحم السلطة برجوازية الدولة أو بتعبير أوضح برجوازية النهب والفساد التي شكلت ثروات كبيرة من نهب القطاع الخاص والهيمنة على العقود مع مؤسسات الدولة، فنشأ تحالف بين البرجوازية الطفيلية المحدثة النعمة والبرجوازية التقليدية أو ما تبقى منها في سورية بعد هروب أغلبها خارج البلد بعد إجراءات التأميم، خاصة في الفترة (١٩٦٦/١٩٧٠) التي كان فيها الاتجاه القومي اليساروي بقيادة صلاح جديد هو المهيمن على حزب البعث الحاكم في سورية.

إذن، بعد ذلك، في عهد حافظ الأسد نشأ ذلك التحالف بين البرجوازية التقليدية والطفيلية الجديدة أو برجوازية الدولة، ضد الطبقات الشعبية الواسعة، بالتوازي مع ظهور علائم الثراء غير المشروع على رجال السلطة، وبدء ظهور أولى طلائع الدولة الأمنية (التي مثلتها الأجهزة الأمنية التي بدأ حافظ الأسد ببنائها) والعسكريتاريا شبه الطائفية (التي مثلها ظهور تشكيل سرايا الدفاع العسكري الطائفي وتشكيلات طائفية أخرى مثل القوات الخاصة)، وهذا الأمر تغذى من الصراع الطائفي الذي بدأ يتمازج مع الصراعات الطبقية والاجتماعية والسياسية في الساحة السورية، منذ قيام قوات البعث باقتحام جامع السلطان في حماة ١٩٦٤، وبدء الصراع بين السلطة والإخوان المسلمين، ما خلق مناخاً ضاغطاً وملائماً لعمل التيارات الرافضة لكل ما سبق.

توجه التيار القومي يميناً في الخارج

بعد وصول حزب البعث إلى السلطة بوقت قصير انكشفت كل الإيديولوجيا القومية التي كانت هزيمة حزيران قد دفعتها نحو الحضيض، فجاءت الخلافات والانشقاقات والصدامات داخل التيار القومي العريض وداخل التيار القومي نفسه داخل سورية، لتكشف هشاشة هذا التيار، فالصراعات بين عبد الناصر والبعثيين وصلت ذروتها، والصراعات بين حزبي البعث في سورية والعراق وصلت درجة القطيعة المطلقة وتبادل الاتهامات، والصراعات داخل التيار القومي في سورية عموما وحزب البعث خصوصاً، وصلت حد أن بدأت "الثورة تأكل نفسها من داخلها"، حيث بدأت التصفيات والصراعات، وأصبح رفاق الأمس أعداء اليوم.

ولمواجهة هذا الواقع الصعب، عمدت السلطة في سورية بعد أن خسرت الحلفاء الإيديولوجيين إلى مد الأواصر والصلات مع من تعتبرهم إيدولوجيتها "الحلف الرجعي العربي" الممثل بالبرجوازية داخلاً كما تحدثنا أعلاه وفي السلطات الحاكمة ذات الاتجاه اليمني في المنطقة، وهو الأمر الذي تعزز أكثر بعد وصول الخميني إلى السلطة وبدء تحالف جديد بين رجال الملالي في طهران ونظام البعث "العلماني" في سورية، وهو الأمر الذي كان تعزز عملياً قبل ذلك من خلال التدخل السوري في لبنان إلى جانب قوى اليمين اللبناني ضد القوى الاشتراكية القومية واليسارية العربية الحاملة لواء المقاومة ضد إسرائيل، كما تحتم عليها عقيدتها الإيديولوجية، فبات واضحاً للجميع حينها التناقض الفج بين الممارسات السياسية للسلطة الحاكمة والشعارات المرفوعة.

أحدث مساعدة لولادة الحزب

ثمة أمران تحدثنا عنهما أعلاه، ولكن لابد من إيرادهما هنا، نظرا للأهمية الكبيرة التي لعباها في تعرية التيار القومي الحاكم وتحفيز الجماهير والنخب الباحثة عن فعل ما، ونعني بذلك: أولاً، هزيمة حزيران التي أنهت عملياً أسطورة عبد الناصر ومعها الإيديولوجية القومية، وعرّت نظام البعث القومي في سورية، خاصة أن حافظ الأسد هو من كان وزيراً للدفاع حينها، وهو من قاد عملية أيلول الأسود ضد الفلسطينيين في الأردن، خاصة أن التيار القومي طالما تعيّش على مسألة القضية الفلسطينية التي حمل لواءها ووصل إلى السلطة باسمها، فكان لوقع الهزيمة أن عرّت هذا التيار كليا، وبدأت عملياً مراجعة نقدية حادة لكل ما هو قائم، وهي مراجعة نلمحها من كم الكتب والإصدارات التي صدرت في

تلك الفترة حول هذه المسألة، والتي كانت سوريا ميدانها الأهم، **حيث أصدر صادق جلال العظم "النقد الذاتي بعد الهزيمة" في حين أصدر المسرحي السوري سعد اللّه ونوس "حفلة سمر من أجل خمسة حزيران" وأصدر الشاعر السوري نزار قباني "هوامش على دفتر النكسة"، ليبدأ التأسيس عملياً لتيار ثقافي نقدي واسع وعريض ساهم في بلورة ثقافة جديدة لعبت دوراً بارزاً في ظهور تيارات ثقافية وسياسية جديدة، وهو ما سنتحدث عنه في الفقرة القادمة.**

والأمر الثاني، تمثل في حرب لبنان ١٩٧٥ ودخول الجيش السوري إلى لبنان لمساندة القوى اليمينية الانعزالية بموافقة واشنطن التي كانت آنذاك "العدو" لكل التيار التحرري والثوري العربي، ما لعب دوراً بارزاً أيضاً في نفور قطاعات كثيرة من النخب والشارع السوري من السلطة، معزّزاً عملية النقد والرفض التي بدأت تتزايد وتتسع وتتمدد.

ولمعرفة مدى تأثير هذه الحرب في ولادة حزب العمل الشيوعي، نذكر هنا هذا المقطع من مذكرات وائل السواح في سورية الذي كان شاهداً على لحظات التأسيس الأولى: "في صيف العام التالي (١٩٧٥)، اجتمع ممثلو الحلقات مرة ثانية، وقرروا ضرورة الانتقال خطوة "إلى الأمام" بإعلان إطار موحّد للحلقات. كان المجتمعون متأثرين باندلاع الحرب الأهلية اللبنانية في أبريل/ نيسان ١٩٧٥ بين الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية من جهة، والكتائب اللبنانية وحزب الأحرار والقوى المتحالفة معهما من جهة أخرى. ولسوف تتطور هذه الحرب لاحقاً إلى مسارات مأسوية لم يكن أحد يدركها آنذاك. بيد أن بدايات تلك الحرب بدت لليسار السوري وكأنها الساحة التي ينبغي لكل اليسار العربي أن يخوضها، نسخة، ربّما، من الحرب الأهلية الإسبانية، التي جاء الثوريون من مختلف أرجاء المعمورة ليشاركوا فيها إلى جانب الجمهوريين ضدّ كتائب فرانكو الفاشية. ولاحقاً، سيشارك أعضاء من التنظيم الجديد مع الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية بالسلاح، وبالكلمة، والدعاية السياسية، والتدريب. وكنت شخصياً بينهم، ففي ١٩٧٩ أمضيت أربعة أشهر أعمل مع جبهة التحرير الفلسطينية، في جريدة الجبهة المركزية وفي تدريب الكوادر في الجنوب".

دور الهراطقة في الولادة

تحت تأثير ما سبق، وبفعل مباشر من الهزيمة على المستويات كافة، بدأ حراك ثقافي جذري ونقدي يعلن عن نفسه، حيث بدأت عملية النقد تطال الجذور الفكرية للأحزاب القائمة والتيارات السائدة، حيث بدأت تظهر في هذه الفترة، من عرفوا آنذاك أو اتهموا من قبل التيارات الرسمية السائدة باعتبارهم "مارقين" و"مهرطقين" في حين أنهم كانوا يؤسسون لتيارات ثقافية جديدة، اتخذت من الهزيمة متكأ لها للشك بكل الأفكار الراسخة والسائدة، وقد عبر عن هذا الاتجاه في سورية، كل من ياسين الحافظ وإلياس مرقص الذين أعملا مبضع نقدهما في التيار القومي واليساري القائم، وهو الأمر الذي تكامل مع صدور مجلة دراسات عربية التي رأسها "المهرطق" الأكبر في الثقافة العربية، والتي يدين الفكر العربي المعاصر بالكثير "لهرطقاته"، جورج طرابيشي، وهو أمر عبّر وائل السواح، وهو أحد كوادر حزب العمل وأحد قياداته في مرحلة ما، والذي قضى حوالي عقد من الزمن في سجون الأسد بسبب انتسابه للحزب، عبّر عن هذا الأمر بالقول: "بدأت وقتها مجلة تلعب دوراً هائلاً في تكوين تيار يساري جديد في المنطقة هي "دراسات عربية"، التي كانت تصدر عن "دار الطليعة"، بعد أن رأس تحريرها المثقف السوري البارز جورج طرابيشي. شخصياً، أدين بالكثير، ومثلي كثيرون من أبناء جيلي، لجورج طرابيشي، فقد كان مدخلي إلى الفكر الماركسي غير الأرثوذكسي، خارج كتب "دار التقدم"، وكان مدخلي إلى عالم فرويد الثري، ومدخلي إلى فهم محمد عابد الجابري من دون تأليهه. منه تعلمت نقد الفكر الديني ونقد الفكر القومي ونقد الماركسية ونقد النقد. وتعلّمت منه أن الماركسية ليست بالضرورة ماركسية- لينينية، وأن الاتحاد السوفياتي لا يمثّل بالضرورة تجسيد الماركسية على الأرض، وأن خالد بكداش ليس معصوماً عن الخطأ كالأنبياء. ومن مجلة "دراسات عربية" تعلمت، حين كان يرأس تحريرها، أنه إضافة إلى كارل ماركس ولينين، هناك أيضاً تروتسكي ولوناتشارسكي وكارل لايبنخت وروزا لكسمبورغ وإريك فروم وهربرت ماركوز. ومنه تعلمت أن إلياس مرقص وياسين الحافظ ليسا هرطوقين، بل هما مجدّدان مبدعان في الفكر الماركسي. ومنه تعلمت أن ما قاله ماركس ولينين ليس مقدساً، بل هو حديث بشر يقبل الخطأ والصواب والتطوير. وأثناء رئاسة تحريره مجلة "دراسات عربية"، آثر طرابيشي المواجهة في مجال الفكر على الانسياق وراء السائد. وفي الوقت الذي كان الأدب الماركسي- اللينيني- الستاليني قد بلغ أوجّه في ظل حكم بريجنيف للكرملين، وهيمنة "العلماء" السوفيات على الفكر اليساري في العالم عموماً والعالم العربي

خصوصاً، نشر طرابيشي (وكذا فعلت "دار الطليعة" التي كان له فيها رأي مسموع) مقالات لأمثال المفكرين السوريين البارزين إلياس مرقص وياسين الحافظ، كما نشر عنهما وعن فكرهما، مفسحاً المجال أمام رؤية مختلفة للفكر الماركسي، قادت كثراً من أبناء جيلي إلى الخروج عن قيود الأحزاب البكداشية التي كانت مهيمنة على الفكر اليساري في الخمسينات والستينات ومنتصف السبعينات. وبدأنا نرى في رياض الترك وعمر قشاش صاحبي رؤية مشروعة، لا مجرد "خائنين" للحزب وللاتحاد السوفياتي "العظيم".

تكلّس اليسار السوري الرسمي وتمزقه

حين تأسس الحزب الشيوعي السوري/ اللبناني كان أحد روافع الحداثة والتقدم في البلدين معاً، ثم بدأت مسيرة الانحدار مع انفصالهما واتجاه الجناح السوري نحو التبعية المطلقة للسوفيات من جهة وتعزيز هيمنة القائد الفرد، الذي مثله الأمين العام للحزب "خالد بكداش" المدعوم سوفياتياً. مضافاً لذلك تأييد الحزب لقرار تقسيم فلسطين والتحاقه بالجبهة الوطنية التقدمية الحاكمة تحت قيادة البعث وابتعاده عن البيئة القومية والمحلية العربية التي ينشط فيها، إضافة إلى بدء ظهور الانشقاقات والاعتراضات داخل الحزب نفسه، حيث انشق المكتب السياسي بقيادة رياض الترك، ثم انشق لاحقا دانيال نعمة ثم انشق في وقت لاحق قدري جميل، الأمر الذي جعل الكوادر القريبة من التفكير اليساري تبحث عما يمثلها، بعيداً عن هذا التمزق والتشتت الذي أصاب الحزب الذي كان من المفترض أن يضمهم كلهم كعائلة واحدة بدلا من أن يتشتت ويتمزق، ودون أن تتحرك قيادة الحزب لمواجهة ذلك، بل كشفت مبكراً عن حب شهواني للسلطة والمركزية التي وصلت لاحقاً، حد توريث الحزب إلى زوجته وصال فرحة بكداش ثم الابن عمار بكداش، وهو ما بات مثار سخرية في الشارع السوري لاحقاً، حيث بات يشار إليه باعتباره حزب "الأب والابن والروح القدس"!

دور الهزائم السابقة والمناخات النقدية السائدة في الولادة

ولدت موجة من الراديكالية الثورية؛ ليس في سورية فحسب، بل على امتداد العالم العربي، موجة راديكالية عبرت عن نفسها في ولادة تيارات وأحزاب وحركات جديدة، تتمحور كلها تقريباً حول فكرة الجذرية القائمة على عدم المهادنة في التحالف مع البرجوازية والسلطات القائمة ومسألة تحرير فلسطين وتحقيق مصالح الطبقات الشعبية، وهو ما نراه بوضوح في ولادة "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" والجبهة "الديمقراطية لتحرير فلسطين"، والجبهة القومية للتحرير في اليمن، وجبهة تحرير ظفار والتي عادت وسمت نفسها بالجبهة الشعبية لتحرير عُمان والخليج العربي، وحزب العمال الشيوعي في مصر وحزب العمال الثوري في سورية، وأيضاً كان تيار صلاح جديد ضمن حزب البعث أحد تجليات هذه الجذرية

قبل أن يطيح به الأسد في سورية.

وما يجمع هذه الحركات الراديكالية اعتبارها أن هزيمة حزيران ناجمة عن اشتراكية البرجوازية الصغيرة، لأنه "بنظرها، فقط الحركات والمقاربات الراديكالية المتجذّرة في الماركسية، قادرة على التغلّب على الصهيونية، والإطاحة بالأنظمة الملكيّة الاستبدادية، وتحسين الظروف المعيشية للطبقات الشعبية" كما يقول الباحث جوزيف ضاهر، في قراءته لظاهرة حزب العمل الشيوعي في أحد مقالاته.

ضمن هذا السياق، ولدت ظاهرة "الحلقات الماركسية" التي كانت الخلايا الأولى التي تأسست منها رابطة العمل الشيوعي، والذي تحوّل لاحقاً إلى حزب العمل الشيوعي في سورية، وهو ما سنخصص له دراسة خاصة، حيث اكتفينا في هذا المبحث بدراسة الجذور التي أدت وساهمت في هذه الولادة.

المراجع:

١. راتب شعبو، قصّة حزب العمل الشيوعي السوري (١٩٧٦–١٩٩٢): فصل من تاريخ اليسار في سوريا، دار المرايا عام ٢٠٠٠.

٢. وائل السواح، سلسلة مقالات نشرت في موقع درج، وعرض خلالها تجربته في حزب العمل الشيوعي.

٣. مذكرات عدد كبير من السجناء السياسيين الذين اعتقلوا لسنوات طويلة على قيود الحزب، إضافة إلى عدد كبير من المقالات التي كتبها البعض منهم، وأشاروا فيها إلى الحزب. لم نورد أسماء هذه المذكرات، لكثرتها من جهة، ولأنها تعرضت للتجارب الشخصية ولتجربة السجن أكثر مما تعرضت لقصة حزب العمل.

٤. جوزف ضاهر، حزب العمل الشيوعي في سوريا: تاريخ سياسي حافل، مقال موّسع من جزئين.

MENA RESEARCH CENTER

مركز أبحاث ودراسات مينا